خبوت فكرة المهدوية في الغرب الإسلامي
-الموحدون نموذجا-

بزوجي وليد
باحث أكاديمي
مكلف بمصلحة الثقافة الإسلامية
- سيدي بلعباس

قدم ابن تومرت نفسه كمؤسس للدولة الموحدية على أساس أنه المهدي المنتظر الذي «يملأ الأرض قسطا كما ملئت ظلما و جوراً» ولكن مهدوية ابن تومرت كانت من الحركات «المهدوية القليلة النادرة في الفكر السني»[1]، ما يفسر ذاك أيضا أن المهدوية ابن تومرت امتزجت عند أهل المغرب آنذاك بصفة الولي الصالح، الذي نتج عن التصوف المنتشر في بلاد المغرب وفي ذهنية المغاربة، لذلك فإننا نرى مزجاً في سيرة ابن تومرت في تقديم نفسه،«كولي من أولياء الله وفقيه وعالم كبير»[2] في مزج صارخ بين المهدية والعصمة والكرامة، لقد كان يمزج بين المهدية التي كانت تقدمه في هيئة الرجل الثائر على الدولة، وكصاحب كرامة، يسلم الناس القيادة له، فيصبحون طوع يديه ولسانه، ليوجههم حيث يشاء.

1 - المهدوية: الفكرة والدولة

إنّ ادعاء ابن تومرت أنه المهدي (الزعيم المرسل من الله ومعيد النّظام)،

قضية هامة أخرى، ومع هذا فإن ذلك كان أقرب إلى أن يكون اعتقادًا شيعياً منه سنياً، فإن ابن تومرت لم يكن يفكر دون شك في إقامة أي صلة بالشيعة في المشرق، بل في استقطاب الاحترام المتأصل في نفوس البربر للأولياء والصالحين (الاحترام الشعبي اليوم للأولياء Marabouts دليل ذلك)[3]، بل مثلت المهدوية التي ادعاها ابن تومرت جدلاً فكرياً باعتباره مبدأ دخيلاً على المغرب السّني المالكي في عصر المرابطين، وهو ما تسبب ابتداء في رفض أهل المغرب لفكرة المهدوية التي أراد ابن تومرت أن يؤسس من خلالها كيانا يستولي به على الإرث المرابطي، و لكن هذا الادعاء دون سائر المبادئ التي جاء ابن تومرت عدا التفكير المطلق للمخالفين أو المشككين في المهدوية، شكل في الحقيقة إحراجا للذهنية السنية المغاربية كما للدولة الموحدية[4] التي كانت تمثل مشروعا نهضوياً بديلاً عن المشروع المرابطي.

ظل ادعاء المهدوية يمثل خلافا صامتاً بين القبائل المصمودية، إذ كان قطاع واسع من هذه القبائل شاكا شكا يصل إلى الرفض لزعامة ابن تومرت الدينية والإيديولوجية مما حذا بابن تومرت إلى اتخاذ خطوات جريئة على نطاق الأتباع وكذا على النطاق الجغرافي.

عمد إزاء هذا الرفض على الغدر بقبيلة هزميرة وتصفية ما يزيد عن خمسة عشر ألفاً منهم، ومعاملتهم معاملة الكفار، ليس هذا فحسب بل إن ابن تومرت عمد إلى تصفية الفقيه الإفريقي -أحد المقربين من ابن تومرت- بسبب استنكاره للمجزرة، كان استنكار الإفريقي للمجزرة دليلاً على أن المعارضة لقيادة ابن تومرت المطلقة في

شكل المهدوية وصلت إلى نخبة النخبة، فنجده و مباشرة بعد ذلك، يقوم بمّد يده إلى ما يلي تينملل من القبائل والأراضي تلافيا لأي حركة انتقامية5، ضده، وربما لشغل المعتبرين من المجزرة عن البقاء دون عمل ذي شأن مما قد ينجرّ عنه، معارضة أخرى يوجه ربما يكون بالعنف الذي و أد به ابن تومرت الحركة المعارضة في مهدها.

لقد شكلت المهدية بالنسبة للدعوة الموحدية تلك الفكرة التي التفّ حولها المصامدة، فكانت الفكرة الدينية التي بذلوا أنفسهم في سبيلها دون هوادة؛ لقد ضرب ابن خلدون[6] في مقدمته مثلاً بهؤلاء الموحدين، وكيف أن الدعوة الدينية حملتهم على مجابهة الصعاب، وركوب الموت، واستهانتهم بذلك في سبيل بلوغ مرادهم.

لقد جعل ابن خلدون أصل الدّين هو الأساس في تكوين الدول العظيمة، وجعل فصلاً آخراً يثبت دور الدعوة الدينية في الزيادة في أصل قوة الدولة ويفسر ذلك قائلاً «والسّبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقم لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساوي عندهم، وهم مستميتون عليه»[7]، ويواصل ليضرب مثلاً بما وقع للعرب صدر الإسلام في الفتوحات، وكما حصل بين المرابطين والموحّدين.

هذه الفكرة المهدوية كانت سبباً في الدفع بالموحدين سلطة ومحكومين لإقامة الدولة على أساسها، ولقد ظلت تشكل رغم إحراجها للعقلية السنية المغربية، المرجع الذي تدور حوله الدولة.

يعالج مالك بن بني قضية الفكرة ودورها في الحضارة، جاعلاً الثانية نتيجة للأولى إذ يقول بأن: «الحضارة نتاج فكرة جوهرية تدفع بها في التاريخ»[8] ويزيد هذا المعنى توضيحا ليجعل كلامه هذا قانونا سارياً على كل حضارة دخلت أو تدخل التاريخ حيث «إنّ الحضارة ما هي نتائج فكرة جوهرية، تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدّفعة التي تدخل به التاريخ»[9]، وعلى هذا الأساس فإنّ الفكرة المهدوية، كانت الفكرة الموجهة في الدولة، فالثورة الموحدية على المرابطين كانت في الأساس فكرة التوجيه التي بثها ابن تومرت على أنه المهدي الذي يصلح الوضع الذي كان في نظره فاسداً يستوجب ظهور المهدي الذي قال بأنه يظهر ببلاد المغرب[10]، لقد حدد ابن تومرت بعقيدته التلفيفية الهدف المنشود الذي ينبغي السير نحوه، ومن ثم فإن المهدوية كانت الدفعة الدينية التي مثلت فكرة التوجيه للإنسان الموحدي، الذي -بدوره- اكتسب من هذه الفكرة «معنى الجماعة ومعنى الكفاح»[11] هذه الجماعة التي مثلت في نظرية ابن تومرت «حزب الموحدين»[12] وأما الكفاح فهو الذي قدم ابن تومرت فيه نفسه كآمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر[13]، في أقاليم الدولة المرابطية ولكن إلى حين.

لقد حمل ابن تومرت أثناء عودته إلى المغرب من رحلته إلى المشرق، مشروعاً الوحدة المركزية الذي يمثل بالنسبة للخلافة الموحدية -ابن تومرت وجماعته المقربون- نقيضاً «لعوامل الفرقة التي يعاني منها المشرق سواء من الناحية الفكرية المذهبية والعقائدية،حيث تعشش الملل والنحل أو من الناحية السياسية حيث

تتكاثر الدويلات والسلطنات»[14].لذاك نجد ابن تومرت يرجع من ملالة مع عبد المؤمن بن علي مصرحا له بأن العلم الذي تزيد اقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب»[15].إننا نرى في مرحلة ابن تومرت مكونات عقيدته،هذه الرحلة التي لم يكتسب فيها ابن تومرت علوماً بقدر ما اكتسب من خلال تجواله،كيفية ترجمة العقيدة الدينية إلى أفكار سياسية[16].في شكل دعوته الدينية المعروفة، نستطيع أن ندري أن العلم الذي يقصده ابن تومرت من خلال كلامه مع عبد المؤمن كان يمثل بداية عملية حشد للكفاءات البشرية المناسبة، لمشروعه السياسي، الذي يبدو أنه واضحاً في رؤية ابن تومرت.

وضوح الرؤية هذا تمثل في تلك الحدة المتزايدة في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، الذي تطور إلى إفحام لفقهاء المرابطين في مراكش، ليتحول إلى حزب مسلح ضد الدولة المرابطية في مرتفعات تينملل المصمودية حتى وإن لم تكن الدعوة الموحدية ممثلة في فكرة التومرتية قامت على أساس «نبوة أو دعوة حق»[17] كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون، فإنّ هذه الدعوة كانت في إطار العقيدة الدينية، لقد قامت هذه الدولة –الموحدية- على أساس التوحيد الذي غلب على وصف الدولة، لا شيء إلا لأن التوحيد -في نظر ابن تومرت- هو العقيدة الدينية التي قامت عليها الدولة لتسمى بالموحدية.

لا يمكن اعتبار ابن تومرت في إطار النظرية الخلدونية صاحب دعوة حق مثلا ولكن عقيدة هي التي تمكن من خلالها «من توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام»[18].

لقد كانت المهدوية بديلاً عن الوحي الذي يهبّ الناس لنصرته،

في صورة الموحدين، إنها الروح التي استمد الموحدون من خلالها الدفعة الأولى التي صبغت بدايات الموحدين، بأعنف المجازر ضد -الكفار المناوئين- سواء من المرابطين أو حتى من الذين يظهرون بعض التذمر من تبعات فكرة المهدوية في إطارها السني والتي حاول ابن تومرت فرضها كعقيدة جديدة ألزم الناس باتباعها، يظهر ذلك جليا في غدر ابن تومرت بهزميرة، كما يظهر من خلال تمييز البشير الونشريسي، وحتى من خلال الاستيلاء الموحدي على وهران أو العاصمة مراكش.

إنّ هذا العنف الشديد، قد يرجع سببه إلى أن ترقب ظهور المهدي، وإن كان حقيقة مقررة عند المغاربة -السنة المالكية- رغم كونه «ثابتا بالوثائق الحديثة والمناقشات الكلامية، يصل البتة إلى أن يتقرر كعقيدة دينية، ولم يبد قط عند أهل السنة إلا كحلية أسطورية لغاية مثلى...»[19] هذه الغاية المتمثلة في إسقاط سلطان المرابطين القائم.

إننا نتساءل عن مقصد ابن تومرت من ادعاء المهدوية، كان يكفي في الإطار المرابطي السّني أن يقوم ابن تومرت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأن «يكون محافظا مناصراً للدولة»[20]، خاصة وأن الكثير من المؤرخين يشيرون إلى لقاء جرى بين ابن تومرت والغزالي، لقد «كان الغزالي داعية في خدمة سلطة قائمة، رغم هذا وضع أسس دعاية قوية ناجحة»[21] لقد ظل التجاذب قوياً بين ابن تومرت صاحب المرشدة -عقيدة الدولة- ورفض أهل السنة لها.

لقد كانت المبادئ التي دعا إليها ابن تومرت، تجد مسوغات في التراث المغربي السني، ولكن «العنصر الوحيد

الذي رفضه أهل السنة فيما بعد بكيفية قطعية هو القول بظهور المهدي»[22]، ولقد كان هذا المبدأ سبباً من أهم أسباب انحلال الدولة -كما سنرى- غير أن مظاهر الصحة تغلب عليه في طور الروح -كما يصنفه مالك بن نبي- ولكن تحول العالم الذي قامت عليه الدولة، نقصد الفكرة الدينية فعل فعله كعامل من عوامل الانحلال «مع مرور الزمن والبعد عن حماسة دور النشأة»[23]،إذن كيف سيتطور هذا الصّراع داخل جسد الدولة بمرور الزمن؟ وكيف ستنتهي مآلات هذه الفكرة؟ وإذا فرضنا كون هذه المهدوية كانت عامل انحلال، فهل سيكون إلغاؤها مثلاً مدعاة لاستعادة الدولة لهيبتها في إطار المنظومة السنية المغربية؟

2 - تطورات الرفض لفكرة الدولة:

لقد كان التوحيد أهم شيء قامت عليه دولة الإسلام عند مبعث النبي محمد ﷺ، إذن فالتوحيد هو جوهر الإسلام الذي قام عليه ولكن الموحدين غلوا في هذا المبدأ بحسب عقيدتهم هم لا بحسب التوحيد المبدأ الإسلامي البسيط.

لقد جعلوا التوحيد هو عقيدتهم، وبالتالي فإنهم اعتبروا الموحّد هو من آمن بعقيدة المهدي، ولم يشكك في شيء مما قال به ابن تومرت، لقد كان ذلك أساس معاملاتهم مع المخالفين لهم وكأن عقيدة المهدي كانت جديدة وباعثة للضمير الإسلامي بحيث أن من آمن بها فهو موحّد مؤمن، ومن لم يدخل فيها فهو مجسم كافر.

كان هذا المبدأ الديني ذا وظيفة سياسية بامتياز، إذ رمى به الموحدون إلى إظهار المرابطين «بمظهر الكفرة الخارجية على الدين، ومن ثم يضمن خروج رعيتهم عليهم»[24]، ولكن هذا المبدأ ظل سائداً لأساس للتعامل مع الغير ممن لم يدخل في طاعة الموحدين السياسية، رغم سقوط الدولة المرابطية.

يظهر من خلال رسائل الخلفاء الموحدين مع أعدائهم -أو من لم يدخل في طاعتهم- ويبالغ خليفة ابن تومرت عبد المؤمن بن علي في رسالته «فما عذر من سمع قيام المهدي في التخلف عنه، ولو كان ببلاد الصين والهند، حتى يلتحق إليه وينجو في سفينته من الغرق العام»[25]، كذلك يظهر في رسالة ولده إلى والي غرناطة لإعلامه بجوازه إلى الأندلس، ينعث فيها ابن مردنيش بالكفر قائلاً، «وإن أمرتكم الجزيرة لمن آكد ما توجه إليه نظرنا وتوكل به اعتناؤنا واشتغل به فكرنا، لمصادقة الأعداء من الروميين والمجسمين لبلاد الموحدين...»[26]، لقد استفاد الموحدون من هذه العقيدة التومرتية في مبدأ الدولة، إذ عضدوا بها ملكهم، برمي خصومهم بالفكر والتجسيم مما جعل الناس من الرعية بإزاء دولة الموحدين صنفين، إذا اضطر المغاربة إما للدخول في عقيدة الموحدين خوفا من بطشهم، كما أن الكثيرين «قد جذبتهم الفكرة فدخلوا عن إيمان وإخلاص»[27]، في دعوة الموحدين، وإما الدخول في المواجهات الطويلة كما فعل بنو غانية.

إنّ هذا الخلل في تحديد مفهوم التوحيد كان له أثر البالغ في سير الدولة الموحدية نحو الانهيار «وإن كان الموحدون لم يفطنوا إلى ذلك أبداً»[28]، قد تسبب هذا التحديد لمفهوم التوحيد، بتحديد الإيمان في

العقيدة الموحدية على أنه إيمان بابن تومرت وفكره لا بالتوحيد الذي جاء به الإسلام أي المتعارف عليه.

إنّ الإخلال لمفهوم التوحيد، وأفكار ابن تومرت التي ألصقت به، قادت «بالضرورة إلى حالة السلب المقابلة التي تملأ الفراغ والفجوات بأوهامها وظنونها... التي تبتز الإنسان المسلم، وتستلب روحه وقدراته الفعالة، وتهدر حريته وكرامته، وتفقده بالتالي القدرة على الفعل والإبداع والعطاء، كما أنها تفقده الأداء الحضاري وحدته وتماسكه وغيره، وتدفعه إلى المزيد من الترهل والتفكك والسّكون»[29]، ولذلك فإننا نجد هذا المفهوم للتوحيد وما سبب فيه من هدر دماء وأموال تسبب -باعتبار عامل قيام وسقوط في آن واحد- في الزيغ الكبير الذي وقعت فيه دولة الموحدية تجاه الدولة المرابطية على وجه الخصوص.

لئن كان هذا الاتجاه للفكر التومرتي قد لاقى رفضاً واسعاً حتى عند قبائل المصامدة، والذين لاقوا جرّاء رفضهم تقتيلاً كبيراً إثر عمليات التمييز التي تكررت مرات عديدة في تاريخ الدولة، فإن هذا الرفض قد استمر، ولكن بتدرج عند الخلفاء الموحدين ولقد كان أول المجسدين لهذا الرفض خليفة عبد المؤمن بن علي الكومي، ولكن الرفض بدأ بالتدرج، لقد عارض التنظيم الذي وضعه ابن تومرت، ولكن معارضته كانت على أرض الواقع، وبحذر شديد، ذلك أن ابن تومرت لما وضع نظام الطبقات «كان يهدف من وراء ذلك إلى أن يكون من ضمن مهامها مراقبة الحكومة التي تدير شؤون الموحدين وتنتقدها وتوجه إليها النصح، بل وتعمل على تغييرها إذا ما خرجت عن الطريق السوي»[30] الذي رسمه.

لقد كانت الطبقات تمثل النظام المحكم الذي يسير عليه مجتمع الموحدين، يقوم بعضها بعضاً، بما يضمن سير الدولة وفق مبادئ التومرتية.

ولكن عبد المؤمن لم يكن ليرضى، «أن لا يكون له من الأمر إلا الاسم»، لم يفعل ذلك مباشرة وإنما بادر إلى استغلال الظروف أحسن استغلال.

عندما هزم الموحدين في موقعة البحيرة مات من جماعة العشرة الطبقة الأولى من طبقات المهدي ثمانية منهم[31]، لقد كانت هذه فارقة مكنت لابن علي من الانقلاب عن مبادئ التومرتية التي رمى بها المهدي المرابطين، وهي اتهامه لهم بأنهم الملوك[32] «لقد غير ابن علي نظام الطبقات، وفق ما يكفل له إنجاز مخططاته»، إن وفاة ثمانية من طبقة الجماعة قد يعتبر دليلاً على أن الطبقات الأخرى للموحدين، قد توفيت أعداد منها أيضا، كان هذا تحضيرا من عبد المؤمن بن علي إلى الخطة التي بعدها، والتي سيظهر فيها جليا تطورات حتى على مستوى هرم الدولة الموحدية.

يذكر لنا ابن الأثير الكيفية التي ولي بها عبد المؤمن ولده محمد العهد من بعده، بعد أن كان قد غير نظام طبقات ابن تومرت بما يوافق هذه الخطوة، بل ويورد ابن الأثير السبب في ذلك إذ يقول: «ولما تمكن عبد المؤمن من الملك وكثر أولاده، أحب أن ينقل الملك إليهم، ووضع عليهم من يقول لهم ليطلبوا من عبد المؤمن، ويقولوا له: نريد أن تجعل لنا ولي عهد من ولدك، يرجع الناس إليه بعدك، ففعلوا ذلك، فلم تجبهم إكراما لعمر لعلو منزلته في الموحدين، وقال لهم: إن الأمر لأبي حفص عمر، فلما علم عمر ذلك خاف على نفسه

فحضر إلى عبد المؤمن، وأجاب إلى خلع نفسه، فحينئذٍ بويع لمحمد بولاية العهد»[33]، لقد كان مقرراً أن يتولى أبو حفص عمر -وهو من تبقى من جماعة العشرة من طبقات المهدي- إذ لم يكن الأمر وراثة أول الأمر، فقد مات ابن تومرت ولم يخلف خليفة ممتثلاً برسول الله ﷺ.

ولكن عبد المؤمن أظهر في رسالة بعثها إلى طلبة الموحدين في سبتة وطنجة، أنه لم تكن له أدنى شائبة في التفكير في توليه أحد أبنائه ولكنها الظروف التي ألجأتهم بإلحاح القبائل عليه في ذلك.

وفي نفس هذه السنة، قسم عبد المؤمن أقاليم الدولة، فاستعمل عبد الله على بجاية، وعلي على فاس، وولّي سعيد على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة، وكذلك غيرهم،[34] لقد خطا عبد المؤمن خطوة في الاتجاه المعاكس تقريبا لمنهج ابن تومرت الكاره للملك وولاية العهد، لم يقتصر رفض عبد المؤمن الضّمني، من خلال ولاية العهد لابنه، لمنهج ابن تومرت في ولاية العهد لابنه فقط بل بتوليه أبنائه[35] ولايات الدولة التي صارت بعد ذلك دولة موحدية يحكمها عبد المؤمن وبنوه، ليصبحوا ملوكا بعد المرابطين، إلا أن الملوكية المرابطية التي كانت علامة استحل بها ابن تومرت دماءهم، وأزال دولتهم تحولت في عهد عبد المؤمن إلى حق طالبت به الرعية بقدرة قادر.

استمرت ولاية العهد أمراً سارياً بين خلفاء الموحدين منذ عهد عبد المؤمن، كخرق صارخ لعقيدة ابن تومرت ومنهجه في الحكم، كانت نتيجة ذلك المباشرة ثورة أخرى المهدي عبد العزيز وعيسى الذين اعتبر نفسيهما أولى من ولاية العهد بأبناء عبد المؤمن، ولكن

هذا التمرد استدرجهما إلى القتل على يد عبد المؤمن بن علي.

ولي يوسف بن عبد المؤمن الخلافة بعد أبيه، ولي يوسف هذا لولده أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي[36]، الذي ظهر منه موقف يبين حجم التدهور الذي وصلت إليه مكانة عقيدة المهدي، في قلوب زعماء الموحدين وخلفائهم، يروي المراكشي قائلاً: « أخبرني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري، ونحن بحجر الكعبة قال: قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف: يا أبا العباس إشهد لي بين يدي الله عزوجل أني أقول بالعاصمة -يعني عصمة ابن تومرت- قال: وقال لي يوماً وقد استأذنته في شيء يفتقر إلى وجود الإمام، يا أبا العباس أين الإمام...أين الإمام».

لقد انتقل الأمر إذن من مخالفة المنهج التومرتي في أمور الحكم والدولة إلى القول بالبراءة من العصمة عند المنصور الموحدي، الذي أظهر في غير موضع ذلك التبرم من عقيدة المهدي حيث يعلق المراكشي على ذلك قائلاً «لو أوردناها لطال بنا التلخيص»[37]، لقد تفطن خلفاء الموحدين للتومرتية عقيدة ومنهجاً منذ عبد المؤمن بن علي، «فحوصرت مفاهيم المهدية في المستوى الرمزي والشعاراتي التي نقل عن يوسف والمنصور ما يفيد تبرهما من المهدية، لكن لم يستطيعا إلغاءها لما كانا يشعران بأنها توفر لهما امتيازات خاصة وأولها تميزهم عن باقي الناس»[38]، إذن لقد كانت المهدوية، سمة تفصيلية لبني عبد المؤمن كورثة لنهج ابن تومرت، ولقد كان الإبقاء على عقيدته في مراسلاتهم ومكاتباتهم

مبقيا على شرعيتهم في الحكم دون سائر ولذلك فإنهم أبقوها شعاراً للدولة، ولكن على مضض، وعلى علم بأنها خطأ اقتنع به الناس.

3 - إلغاء المأمون للمهدوية:

ولكن الإصرار على الخطأ بقي حيناً من الدّهر منهج خلفاء الموحدين، مع كتمان التبرم من عقيدة المهدي.

لما بويع المأمون بالخلافة، وهو ما يزال بإشبيلية خاف القاتلون لأخيه العادل من سطوته «لما يعلمون من شهامته وصرامته، وتخلقه بأخلاق الحجاج بن يوسف، وتخوفوا أن يأخذهم بدم عمه عبد الواحد المخلوع، ثم أخيه عبد الله العادل...»[39]، ولكن أهل الأندلس قد بايعوا المأمون، هذا الذي كتب إلى الحضرة ببيعته، ولكنهم آثروا ابن أخيه يحي بن الناصر لصغر سنه، لما علم بذلك المأمون جاز إلى المغرب يريد دخول مراكش، فلما دخلها، خرج له ابن أخيه يحي بن الناصر الذي اختاره قاتلوا العادل«ليكون أطوع لهم»[40]، ذلك لأنه كان صغير السّن.

تأخر المأمون لطلب العون من النصارى على الموحدين، ولكن المأمون كان يكتم شيئاً سيكون فارقه خطيرة في تاريخ الدولة الموحدية.

لما دخل المأمون نهض إلى مراكش بعدما أراح لسبتة، حتى لما قرب من مراكش لقيه «يحي بجيوش الموحدين وذلك عشي يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الأول من السنة الداخلية، فانهزم يحي وفر إلى الجبل»[41]، وانتصر المأمون داخلاً إلى مراكش العاصمة، وخطب خطبته المشهورة الجريئة التي أعلن فيها نقض بيعة المهدي، حيث صعد المنبر وقال: «لا تدعوه بالمهدي المعصوم

وادعوه بالغوي المذموم، ألا لا مهدي إلا عيسى»[42]، ويذكر ابن عذاري أن المأمون كتب إلى سائر البلاد «بزوال اسم المهدي من السكة والخطبة، وذلك أنه لما قتل الموحدين أمر بقطع ذكر إمامهم المهدي من الخطبة في جميع بلاده، ومحا اسمه من المخاطبات ومن النقش في السكة وقطع النداء بعد الصلاة والنداء عليها... وأصبح ولله الحمد وما أشبه ذلك مما كان عليه العمل من أول دولة الموحدين إلى هذه السنة المؤرخة»[43]، لقد صدع المأمون، بما ظل طي الكتمان في نفوس خلفاء الموحدين، حتى أن المأمون أخبر في خطبته أن المنصور أباه أوشك على القيام بهذه الخطوة قائلاً:« وقد كان سيدنا المنصور قد همّ أن يصدع بما به الآن صدعنا وأن يرفع للأمة الخوف الذي رفعنا...»[44].

هذا الكلام يقدم لنا دليلاً آخر على أن الإيمان بفكرة العصمة والمهدوية عقيدة ومنهاجاً كانت في منحنى تنازلي، من الإيمان بها إلى التخلي عنها.

إن خطوة المأمون الجريئة في إلغاء المهدوية والعصمة، تعتبر آخر أدوار الحضارة الموحدية وفق ترتيب ابن نبي لها: إذ مرت هذه الحضارة بمرحلة الروح فيما يخص ابن تومرت وبعده عبد المؤمن بن علي حتى عهد الخليفة المنصور الموحدي، قد تعتبر فترة ما بعد فتح المغربين إلى هزيمة العقاب أو خلافة النّاصر مرحلة العقل التي سادت من عهد عبد المؤمن، وأبي يعقوب يوسف المنصور، حيث انتعشت الآداب والعلوم مرة أخرى، وبسط الأميران حمايتهما على الفلاسفة.

أما عصر الخليفة الناصر، فقد بدا فيه خليفة الموحدين، غير معنيٍّ لا بالفلسفة ولا بالدين، بل أهمل شؤون الحكم وانغمس في الملذات[45]، وعلى هذا الشأن سار الخلفاء بعده حتى صار يبايع الخليفتين للموحدين في آن واحد، ذلك أن الملك والحصول عليه أصبح الشغل الشاغل لأبناء عبد المؤمن.

بل بلغ الأمر في عهد المأمون مثلا أن استجلب معه جيش النصارى للدخول إلى مراكش، وقد قبل الخليفة الموحدي بشروط مخزية كان فيها ثُلُمٌ كثيرة للنصارى على بلاد الأندلس تقول المصادر بأن المأمون، «قد شرط عليه صاحب قشتالة أن يعطيه عشرة حصون ما يلي بلاده يختارها هو، وأن يبني بمراكش إذا دخلها الجيش النصاري الذين معه كنيسة بظهور بها دينهم، ويضربون فيها نواقيسهم لصلواتهم وأن من أسلم منهم لا يقبل منه إسلامه، ويرد إلى إخوانه فيحكمون فيه بأحكامهم إلى غير ذلك، فأسعفه المأمون في جميع ما طلب منه»[46]، إنه الحرص على الملذات والملك قبل أي شيء آخر، لا يمكن أن يكون ذلك إلا مرحلة الغريزة[47] التي تسبق سقوط الدولة وتراجعها الحضاري وفق ترتيب ابن نبي.

لقد أصبح التأثير السني واضحاً عند المغاربة، ولا شك أن الانتصار الهادي لفقهاء المالكية، وصمود المذهب أمام التومرتية، عهد للمأمون أن يقوم بخطوته الجريئة هذه، إنّ الإجراءات المتخذة من طرف المأمون كانت نابعة من شعور المأمون لمحدودية أثر التومرتية في التجربة الموحدية، وعجز التومرتية، عن كسب تعاطف المجتمع والتفافه، فانتهز أحداثا داخلية محضة، ليجهز التصور

بأنها أصبحت –التومرتية- تعيق سير التجربة السياسية وتحد من اندماج الدولة في المجتمع.

هناك معطيات أخرى تفسر هذا الإجراء، وهي عناصر مرتبطة أساساً بشخصية المأمون، هذا الخليفة كان شخصية علمية مرموقة، قريباً من أهل العلم، وقد نشأ نشأة أندلسية بعيدة عن التأثير المباشر للوسط المصمودي.

كذلك التحفظ الذي كان لوالده المنصور من التومرتية فكرة وعقيدة، ثم إنّ المجتمع كان يسري فيه موقف عام من تراث ابن تومرت، عبر عنه بعض العلماء في مواقف مختلفة جعل خطوة المأمون أشبه بنطق على ألسنة الصامتين في المجتمع الذي أصبح يرتبط مذهبياً بانتماء سنّي أصبح راسخاً... مما يعطي الانطباع بأن الإسلام الذي تبناه المجتمع كان أبسط من الصيغة التي حاول الفكر التومرتي فرضها[48] على المغاربة.

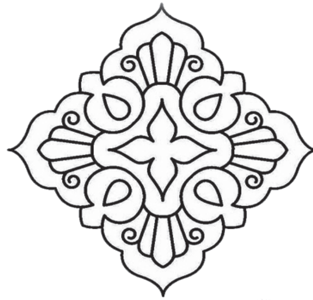
قد يكون اضطر المأمون إلى فعل ما فعل، وهو يمثل هرم السلطة الموحدية، في صورة تنازلات لم يكن بدٌّ من تقديمها لكسب ودّ الفقهاء دليلاً على أخطر ضعف عانوه، وهو فقدان التأثير الشعبي، ذلك أن المرابطين اقتلعوا الارستقراطية العربية من السلطة، ولاقوا تأبيدا من الفقراء وعامة الشعب، وقد يكون الموحدون حصلوا على تأييد فعال من جانب الأرستقراطية المخلوعة، لكن نصيبهم من التأييد تضاءل عند العامة منذ أن زال شعور الارتياح العابر، بالخلاص من مساوئ المرابطين.

إنّ صورة المهدي ابن تومرت التي اجتذبت البربر كانت الأرجح ضئيلة

الجاذبية بالنسبة إلى سكان الأندلس تماماً مثلما كان من الممكن أن يكون بالنسبة للعرب في أقطار إفريقيا الشمالية الواقعة شرقي الإمبراطورية الموحدية.

وإذا صح هذا كله فمن الممكن القول إن الدولة الموحدية، كانت قبل كل شيء تتركز أساساً على القوة العسكرية، هذه الأخيرة لا تتطلب من الدولة سوى القدر الأقل من الموافقة من جانب الناس المحكومين، لم يكن لدى الشعب حماسة ولا إحساس

بأنه مرتبط بالنخبة الحاكمة من أجل قضية خطيرة، في هذه الأوضاع العصيبة تخلى على الأقل عضو واحد من الأسرة الحاكمة ممثلة في شخص المأمون عن ولائه لتعاليم ابن تومرت، وهكذا كان تصور عامة الناس، إن هذا الأمر كان فيما يبدوا أكثر من أي شيء سواه سبباً في انحطاط حكم الموحدين[49].



الهوامش:

1 - عز الدين ميدون، ندرومة مدينة عبد المؤمن، ج02، ط01، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، سنة 2011، ص:04.

2 - حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب و الأندلس، مكتبة الأسرة، القاهرة، سنة 2004، ص:206.

3 - مونتغمري وات، في تاريخ إسبانيا الاسلامية، المطبوعات للنشرو التوزيع، بيروت، ط2 1998، ص:120.

4 - المغراوي محمد، الموحدون وأزمات المجتمع، جذور للنشر، الرباط، سنة 2006، ص:146.

5 - المغراوي، الموحدون و أزمات المجتمع، ص:20.

6 - ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة، بيروت، ط2007، ص:169 - 170.

7 - ابن خلدون، المقدمة، ص: 169 - 170.

8 - مالك بن بني، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة، أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، ط2009،9، ص:41.

9 - نفسه، نفس الصفحة.

10 - ابن تومرت، المهدي، أعز ما يطلب، تحقيق و تقديم عمار طالبي، الجزائر 2009، ص: 249 - 254.

11 - مالك بن بني، شروط النهضة: ترجمة عبد الصبور شاهين، كامل مسقاوي، دار الفكر دمشق، ط9 سنة 2009، ص:84.

12 - ابن تومرت، المصدر السابق، ص:254.

13 - البيذق، أبي بكر علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق عبد الوهاب بن المنصور، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، سنة 1971، ص: 21 - 22 - 23.

14 - عبد المجيد الصغير، خصوصية التجربة الصوفية في المغرب، مفاهيم و تجليات، رؤية للنشر، الطبعة الأولى، 2011، ص:85.

15 - البيذق ، المصدر السابق، ص:16.

16 - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص305، مركز الثقافي العربي، ط02، سنة 2009. الدار البيضاء، المغرب، ص:306.

17 - ابن خلدون، المقدمة، ص: 132.

18 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ج01، دار الوعي، الجزائر، ترجمة عبد الصبور الشاهين، سنة 2012، ص:56.

19 - اغناتس غولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الديانة الإسلامية، ترجمة محمد يوسف موسى، منشورات الجمل بغداد - بيروت 2009، ص:90.

20 - غولد تسيهر، المرجع السابق، ص:307.

21 - العروي، المرجع السابق، ص:306.

22 - نفسه، ص:307.

23 -عز الدين عمر أحمد موسى، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، بيروت، ط1، 1983، ص:77.

24 - الغناي، مراجع عقيلة، سقوط دولة الموحدين، منشورات جامعة قاريونس، دار الكتب الوطنية، بنغازي، سنة 2008، ص:46.

25 - أحمد عزاوي، رسائل موحدية، مجموعة جديدة، ج1، منشورات كلية الآداب، جامعة القنيطرة، ط1، 1995، ص:54.

26 - نفسه، ص:117.

27 - الغناي، المرجع السابق، ص:48.

28 - نفسه، نفس الصفحة.

29 - عماد الدين خليل، مدخل الى الحضارة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، لبنان، بيروت، ط1، 2005، ص:156.

30 - الغناي، المرجع السابق، ص:51.

31 -البيذق، المصدر السابق، ص: 48.

32 -ابن تومرت، المصدر السابق، ص:242.

33 - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، دار الكتاب العربي، ط4، 1983ن بيروت ، ص:408.

34 -الغناي، المرجع السابق، ص:62.

35 - ابن الأثير، المصدر السابق، ص:408.

36 - نفسه، ص:240.

37 - المراكشي. عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم عزب، دار الفرجاني للنشر، القاهرة، سنة1994، ص:240.

38 - المغراوي، المرجع السابق، ص:144.

39 - الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، تحقيق جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، سنة 1954، ص:208.

40 - الناصري، المصدر السابق، ص:208.

41 - نفسه، نفس الصفحة.

42 - نفسه، ص:212.

43 - المراكشي، المصدر السابق، ص:286.

44 - ابن عذاري، المصدر السابق،، ص:287.

45 - ول وايرل ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان ترجمة محمد بدران، دار الجيل بيروت، بدون سنة ص: 227 - 228.

46 - الناصري، المصدر السابق، ص: 211 - 212.

47 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ج01، دار الوعي، الجزائر، ترجمة عبد الصبور الشاهين، سنة 2012، ص:41.

48 - المغراوي، المرجع السابق، ص:- 145 - 146 - 147.

49 - مونتغمري وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، المطبوعات للنشر والتوزيع، ط2، ، بيروت،1998، ص: 120 - 121.